الخاتمـــة
أثر الأدب الأندلسي في الآداب الأوربية

بات من المؤكد أن الأدب العربي في الأندلس كان رافداً من الروافد التي صبت في الأدب الأسباني بوجه خاص وفي الآداب الأوربية بشكل عام. ولم يكن الأدب سوى فرع من فروع الشجرة الكبيرة التي نمت في الأندلس وأتت ثمارها المتنوعة في ميادين المعرفة كافة. ولم يترك التقدم الحضاري الذي أحرزته الأندلس آثاره في الثقافة العامة في شبه الجزيرة الأيبرية بل تجاوزها إلى دول أوربية أخرى.

يقرر اكثر الدارسين أن الأندلس وصقلية كانتا أوسع منفذين وبابين، انتقلت عنهما ضروب المعرفة والثقافة إلى أوربة في القرون الوسطى ولقد أستمر هذا التأثير قروناً طويلة ولم يعد المراء مجدياً في إنكار هذا الفضل واليد البيضاء التي أسدتها الحضارة العربية فقد أقر بهذا التأثير جل المتخصصين في دراسة الحضارة الأندلسية وآدابها، إن لم يكن جميعهم وذهبت دراسات أخرى إلى تبيين أثر الشخصية العربية وملامحها في المجتمع الأسباني الحديث.[1]

وكان من أثر هذا الانفتاح على الحضارة الأوربية إقبال المتنورين من علماء أوربة على الثقافة العربية بكل ضروبها وانكبابهم عليها بنهم وشغف شديدين، ولم يكن نقل هذه الحضارة ليتم بين عشية أو ضحاها، فقد ظلت ترجمة كتبهم المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوربة خمسة أو ستة قرون فيما يذكره غرستاف لوبون.[2]

ومن الخطأ أن نتصور أن تأثير الحضارة العربية في الحضارة الأوربية اقترن بسنوات سيادة دولة المسلمين في الأندلس، إذ أن هذا التأثير لم ينته بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ بل استمر بعد ذلك ممثلاً في المورسيكيين، ومن هنا يرى الباحثون أن وجودهم استمر ماثلاً محسوساً طيلة تسعة قرون على الأقل، وهو مدة كافية لكي يترك العرب في الشعبين الأسباني والبرتغالي من رواسب حضارتهم ما لا يزال سمة واضحة لهما حتى اليوم.[3]

وأما الوجود العربي في جزيرة صقلية فقد استمر حوالي ثلاثة قرون بعد افتتاحها

---

١ ينظر ما كتبه د. عادل البكري، الملامح العربية في المجتمع الأسباني الحديث، مجلة الأقلام، ٦/٥٩ . ٦٨، بغداد. منتخبات مما كتبه الغربيون عن الحضارة الإسلامية في الأندلس في كتاب محنة العرب في الأندلس، د. أسعد حوق، ط٢، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨٨.

٢ حضارة العرب، ٥٦٩، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٤.

٣ أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، ٢٧.

(٢١٢. ٤٨٤هـ) ولم يكن دورها أقل من شقيقتها. الأندلس. في الإشعاع الحضاري، وكان أثرها في الآداب مباشراً في إيطالية مما أدى إلى ابتكار الشعر الوطني حيث بدأت العناية بقرض الشعر مما أدى إلى نهوض الشعر الإيطالي.[١]

حتى إنه لقد اضطرت مدينة (جنوه) أن تؤسس مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة ١٢٠٧، يدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة، وفي جميع اللغات العامية في جميع المدن الإيطالية التي كانت تتجر مع الشرق وصقلية.

لقد أثبت أماري المواطن الصقلي أن صقلية مدينة للعرب بحضارتها، كما أن إيطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية.[٢]

وفي الاتجاه الأدبي يرى جلال مظهر أن شواهد التاريخ قد دلت بوضوح أنه لم ينشأ مثل هذا الأدب في أي جزء من أجزاء أوربة، فيما عدا أسبانية وصقلية بطبيعة الحال.[٣]

لقد كرست دراسات كثيرة لتتبع آثار الحضارة الأندلسية على أوربة، ومن هذه الدراسات التي تتبعت جذور التأثيرات وأبعادها، الدراسة القيمة التي اشترك في تأليفها مجموعة من المتخصصين بعنوان أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية،[٤] ومن فصول الكتاب التي تهمنا ما كتبه محمود علي مكي وسهير القلماوي عن التأثيرات في مجال الأدب، وكتاب جلال مظهر أثر العرب في الحضارة الأوربية، وكتابان لمحمد مفيد الشوباشي بعنواني العرب والحضارة الأوربية،[٥] ورحلة الأدب العربي إلى أوربا،[٦] وكتاب شمس العرب تسطع على المغرب للمستشرقة الألمانية زيغرد هونكة.

لقد مضت مراحل التأثير في الحضارة الغربية في ثلاثة أشواط وهي:[٧]

عصر التأثير غير المباشر، وعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وعصر الاستعراب قمة التأثير العربي.

ويتمثل في العصر الأول تأثير الأندلس في الحضارة الأوربية عن طريق البعثات العلمية التي كانت تفد إليها في عصور متقدمة حيث وفد الراهب الفرنسي جربرت دي أورياك في عهد الحكم المستنصر، وأصبح فيما بعد بابا روما، وكان له دوره البارز في نشر علوم العرب.

وقد تتابعت البعثات الأوربية على الأندلس بشكل متواتر وزادت أعداد الوافدين عليها حتى بلغت سنة ٣١٢هـ زهاء سبعمائة طالب وطالبة وكان بعض هذه البعثات

---

١ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، أحمد علي الملا، ص ١٢٤.
٢ نفسه، ١٢٤.
٣ العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٣٥٥، ط منشورات دار الرائد، بيروت، ١٩٦٧.
٤ أشرف على إعداد هذه الدراسة مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
٥ صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية، رقم ٤٣، القاهرة، ١٩٦١.
٦ سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، رقم ٤٧، دار المعارف، بمصر، ١٩٦٨.
٧ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٤٧٤ . ٤٨٧.

يضم عدد من الطالبات على نحو ما حصل حين أوفد ملك ولز بعثة برئاسة ابن أخيه تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان.

ويشير أحد الدارسين إلى بعثة كان قوامها مئتين وخمسة عشر طالباً وطالبة قدمت إلى الأندلس فصادف لدى ثمانية من أفرادها الإعجاب بالدين الإسلامي فاعتنقوه وأقاموا مدة حياتهم في الأندلس ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن من رجال الأندلس وأنجبن عدداً من العلماء منهم عباس بن فرناس.[1]

وأما العصر الثاني فيتمثل في معهد الترجمة الذي أسسه مطران طليطلة ريموندو ١١٢٦. ١١٥٢م ويعد من كبار مترجمي عصره، واستمرت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري مقرونة بشخصية الفونسو العاشر الملقب بالعالم (٦٥٠. ٦٨١) حيث انتشرت حركة ترجمة الكتب من العربية ولم تقتصر على كتب العرب أنفسهم بل كتب الأمم الأخرى التي ترجمت إلى العربية.

وأما العصر الأخير فيمثل القرون الثلاثة الأخيرة من السيادة العربية في الأندلس وقد اتصف هذا العصر بـ "القبول الأعمى لكل ما هو عربي والنظر إليه بوصفه الحجة النهائية".[2]

سنتوقف وقفة متأنية لتبين مجالات التأثير في الحضارة الأوربية. فيما يعنينا. في ثلاثة اتجاهات:

١. أثر اللغة العربية في اللغة الأسبانية.
٢. أثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الأوربي.
٣. أثر القصة العربية في القصة الأوربية.

إن كل اتجاه من هذه الاتجاهات اختصته دراسات الباحثين بالعناية والدرس ولا سيما بعد أن ازداد اهتمام العرب بدراسة تراثهم والتعرف على أبعاد تأثيره في الآداب العالمية.. فضلاً عن دراسات الغربيين أنفسهم التي نظرت إلى هذه القضية على أنها جزء من تاريخها الأدبي.. فكان الموقف بعيداً عن روح التعصب والانحياز قريباً من الموضوعية والنزاهة العلمية، مما حدا بالكثيرين إلى عدم إنكار هذه الظواهر، وعدم التردد في الإقرار بفضل الأدب الأندلسي، وتتبع هذه التأثيرات خطوة فخطوة.

١. أثر اللغة العربية في اللغة الأسبانية:

ومن أقدم المحاولات لرصد آثار اللغة العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية ما قام به فرانشيسكو مارينا حين أحصى الألفاظ القشتالية ذات الأصل العربي المختصر وذلك سنة ١٨٠٥ يليه المعجم اللغوي الذي أعده دوزي وانجلمان بعنوان معجم الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية، وصدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٨٦١،

---

١ أوربا ترسل بعثاتها إلى الأندلس، ص ٩٠. سليم طه التكريتي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٧، الكويت، ١٩٦٨. تاريخ العرب وحضارتهم، ٤٧٦.

٢ تاريخ العرب وحضارتهم، ٤٧٩.

وألف إيكيلاث معجم اشتقاقي للكلمات الأسبانية ذات الأصول الشرقية، غرناطة ١٨٨٦.

وتتابعت المؤلفات في هذا الاتجاه على نحو ما يحصيه حكمت الأوسي في بحثه عن التأثير العربي في الثقافة الأسبانية،[١] فيشير إلى بحوث تناولت الألفاظ العربية الأسبانية والبرتغالية وبعض اللغات الأوربية الأخرى ومن الدراسات التفصيلية التي كتبت مبكراً دراسة المستشرق ليفي بروفنسال[٢] عن أثر العربية في اللغة الأسبانية وهو في أصله محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية سنة ١٩٣٨ ويقرر فيها أن اللغة الأسبانية وجدت نفسها مضطرة على أن تأخذ من اللغة العربية لتستطيع التعبير عن المفاهيم الجديدة، وبخاصة في مجال المؤسسات والنظم والحياة الخاصة، والبرهنة على هذا غنية بالشواهد الواضحة على نحو فريد، فمن تلك الألفاظ التي ما تزال مستخدمة في اللغة الأسبانية في التنظيمات العسكرية: (الفارس AlFerez) على رتبة الملازم، و(الطليعة Atalaya) على مقدمة الجيش، و(الساقة Zaga) على مؤخرته.. وغيرها.

وما زالت المفردات المتصلة بالتحصين تحتفظ إلى الآن بنفس المعنى الذي كانت عليه في العصر الإسلامي.

وبعد أن يعدد ألفاظاً كثيرة في هذا الاتجاه يقول:

"سوف تطول بنا الرحلة بعيداً وربما أدى بنا الإسهاب إلى الملل إذا حاولنا أن نستقصي المفردات التي دخلت لغة الحياة اليومية ومن ثم سوف نقتصر هنا على الإشارة إلى الأنواع المتعلقة بمعاني الكلمات"[٣] ومن أمثلة ذلك أسماء الأمكنة التي لما تزل قائمة حتى وقتنا هذا والألفاظ الزراعية في لغة الفلاحين الصميمة، وفي هذا المقاييس والموازين وصيد البحر ومعاجم النبات، ويتجاوز الأمر ذلك إلى الألفاظ الحضارية المتصلة بحياة الترف والرخاء، فقد استخدموا ألفاظاً عربية خاصة بقص الشعر وتسريحه، والملابس والأحذية "فملابس السيدات المسيحيات تزدان من قبل أن تسقط أسبانيا الإسلامية حتى بعد أن استردها المسيحيون على حد سواء، بأروع وأغلى الملابس العراقية وكانت تحمل أحياناً اسمها العربي نفسه فيقال الجبة (Algu bas) والدراعة [illegible] والحالف (alhafes) وهو المعطف من الفراء والمبطنة [illegible]

[illegible] على نحو تفصيلي إلى أبعاد التأثير اللغوي للعربية في فنون الملاحة والمنسوجات الزراعية والمعادن وفي ضروب حياة الترف فيؤكد أن أكثر أسماء الآلات الموسيقية من أصل عربي مثل العود (Lude) والقيثارة (guitar) والربابة (rebec) والنقارة (naker) مما يشير إلى أن هذه الآلات دخلت أوربة بوساطة العرب،

---

١ التأثير العربي في الثقافة الأسبانية، سلسلة الموسوعة الصغيرة "١٥٢"، ص ٥٧ وما بعدها.
٢ الحضارة العربية في أسبانيا، ١١٥.
٣ نفسه، ١١٧.
٤ تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى، ص ٤٢.

وهو ما يؤكده عبد الرحمن الحجي في دراسته عن الموسيقى الأندلسية.[1]

ومن الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة كذلك ما كتبه لطفي عبد البديع حيث قدم إحصاءً مماثلاً لسالفيه يقرر معه أن رحلة في عالم الألفاظ لكفيلة بأن يقف منها المرء على تغلغل اللغة العربية في مناطق الحياة بشبه الجزيرة الأيبرية.[2] ولا يفوتنا أن ننوه ببحث المستشرق الأمريكي وليم إليوت الذي كرّسه لتتبع بعض تأثيرات العربية في الأسبانية الحديثة.[3]

ومع هذا التداخل بين اللغة العربية واللغتين الأسبانية والبرتغالية يقرر عباس محمود العقاد،[4] أن هذه المفردات تملأ معجماً غير صغير، ولكنه يرى أن العبرة ليست بدخولها في صفحات المعاجم ولكن بدخولها في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لأنها لم تتمثل على الألسنة إلا بعد أن تمثلت في أحوال ونوازع الإحساس والتفكير.

ويؤكد هذه الفكرة حكمت الأوسي حين يجد أن التأثيرات العربية لا تقتصر على بقايا آثارنا أو أطلالها هنالك وإنما هي ظاهرة شائعة في أخلاق القوم وطباعهم وعاداتهم بل حتى في دمائهم وسحنائهم،[5] ويقرر أنه على الرغم من القوانين التي صدرت بتحريم استعمال الألفاظ العربية في الأسبانية فإنه لا يزال اليوم أكثر من سبعة عشر بالمائة من مفرداتها عربي الأصل وهو يشكل أكثر من أربعة آلاف كلمة.

ومن التأثيرات العربية الواضحة استخدام صوتي الخاء والثاء، فالأسبانية هي الوحيدة التي تستخدمهما بين اللغات اللاتينية، وكذلك استخدام (ال) التعريف التي دخلت كثيراً من الكلمات الأسبانية، حتى أن بعض الدارسين قرر أن كل كلمة أسبانية تبدأ بهذين الحرفين Al هي عربية الأصل.[6]

والحق أننا نستطيع أن نعد بحث الأوسي أحد البحوث المتفردة في تتبع واستقصاء الظاهرة اللغوية الناجمة عن تأثيرات العربية فقد رصد تركيبات وصيغاً لغوية ترجمت حرفياً عن العربية ومثل هذه الأساليب والتعابير. في رأيه. حرية بالدراسة ولذلك قام بمحاولة لجمع هذه التعابير فاجتمع لديه منها حوالي أربعين تعبيراً، يسوق بين يدي كلامه أمثلة من هذه التعابير التي يجد ما يناظرها في عاميتنا العراقية ثم يتأول هذه الظاهرة ويعللها.. وقد أتيح للأوسي بوصفه عراقياً أن يرصد الظواهر ذات الصلة بالبيئة العراقية لغة وأمثالاً وعادات... بعد أن أقام في مدن أسبانية حقبة من الزمن.[7]

ومن الأمثلة الطريفة التي يسوقها في بحثه ما يرويه عن شيخ أسباني هو فرانشيسكو

---

١ تاريخ الموسيقى الأندلسية، ص ١١١، ط دار الإرشاد، بيروت.
٢ الإسلام في أسبانيا، ١١٣.
٣ مجلة آداب الرافدين، العدد ٩، الموصل، ١٩٧٨.
٤ أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٦٨، دار المعارف، بمصر، ١٩٤٦.
٥ فصول في الأدب الأندلسي، ١٤٦.
٦ نفسه، ١٤٨.
٧ نفسه، ١٦٣.

ديسكالث أنه كان يعيش عيشة العرب، يحتفل بالمناسبات التي يحتفلون بها ويغني أغاني عربية، ويحث جيرانه على صيام رمضان، ويقال إنه كان يتجول من مكان إلى آخر وهو يعزف على عوده وبرفقته شخص يساعده ويشترك معه في الغناء والضرب على الدف، وكانا يغنيان أغنيات يذكرون فيها اسم (محمد) ﷺ، وكانا مولعين خاصة بأن يغنيا باللغة العربية بهذا المعنى: "أيها الناس صوموا في هذا الشهر المبارك كما اعتدتم أن تفعلوا لكي تكسبوا الجنة"[1] ويشير أحد الباحثين إلى وجوه أخرى من ظواهر التأثر بالمجتمع العربي في الأندلس هو عبد الرحمن الحجي فيذكر أن الأسبان تبنوا عن طواعية بعض العادات الإسلامية، كالختان، وتوقفوا أحياناً عن أكل لحم الخنزير، كما اتخذوا العربية لغة أخرى، وتسموا بالأسماء الإسلامية إلى غير ذلك.[2]

٢. أثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي الأوربي:[3]

تتوقف الدراسات المقارنة عند أبعاد التأثير الذي تركه الأدب الأندلسي من حيث الشكل والمضمون في الآداب الأوربية، وفي مقدمتها الأدب الفرنسي والأسباني..

وكما تعترف الدراسات بفكرة التأثير بسبب الصلات الحضارية التي كانت بين العرب والأوربيين فإننا نجد من الصعوبة أن نتتبع مجالات تأثير الأدب، لا سيما أن هناك مجالات شائعة ليس من السهل أن تحدد، ولكنها دالة بطبيعتها على العطاء العربي.[4]

ومن أقدم الأصوات الأوربية التي ارتفعت بحقيقة التأثير ما ذكره العلامة الإيطالي G.M. Barbieri منذ القرن السادس عشر الميلادي،[5] ثم أكد الفكرة الأب الأسباني خوان أندريس حين نشر كتاباً بالإيطالية في سبعة مجلدات بعنوان أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة (بارما ١٧٨٢. ١٧٩٩) وأعاد نشره في روما في ثماني مجلدات بين سنتي (١٨٠٨. ١٨١٧) وفحوى الكتاب أن النهضة التي قامت في أوربة في كل ميادين العلوم والفنون والآداب، والصناعات إنما كانت بفضل ما ورثته عن حضارة العرب، ونظرته هذه كانت أشبه بإلهام عبقري[6].. وقد رأى كذلك: "أن الشعر الأسباني إنما نشأ أول مرة، تقليداً لشعر العرب وأن اختلاط النصارى والمسلمين كان من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين".[7]

ويقرر محمد مفيد الشوباشي أن تأثير الأدب الأندلسي لم يكن عابراً أو سطحياً

---

١ نفسه، ١٦٣.
٢ تاريخ الموسيقى الأندلسية، ١١٢..
٣ ينظر بحث بروفنسال بعنوان (الشعر العربي في الأندلس وأثره في الشعر الأوربي)، مجلة الكتاب المصرية، مجلد ٤، ج٧، السنة ٢، ١٩٤٧، ص ١٠٣٦.
٤ أثر العرب والإسلام، ٢٤.
٥ أثر الشعر الأندلسي في شعر التروبادور، عباسة محمد، ص ١٨٩.
٦ أثر العرب والإسلام، ٤١. فصول في الأدب الأندلسي، ١٥١. التأثير العربي في الثقافة الأسبانية، ٣٣.
٧ العرب والحضارة الأوروبية، ص ٣٢.

بحيث يمسها مساً عابراً أو سطحياً بل إنه يجد فيها نهضة أدبية كبيرة غيرت من واقع حاله كما غيرت مضامينه وصوره بعد أن كان إغريقي الموضوع لاتيني اللغة منعزلاً عن الجماهير.. ثم اتصل بالجماهير.. بعد أن كتب بلغاتهم الوطنية وكان هذا التحول بسبب اتصاله بالأدب العربي، ولم يكن من السهل تبدل تلك الحال إلا بهبوب نسمات منعشة من أدب متجدد الألوان، فقد أمد الأدب العربي أوربة الغربية بالنماذج الأدبية التي كانت تحتاج إليها، وحول أدبها إلى اتجاهات جديدة كانت السبب في انطلاقه قدماً في طريق السمو الفني[1] وهكذا طلعت من أسبانية وإيطالية خلال القرن الثاني عشر بشائر نتاج أدبي كتب بلغتيهما، وتضمن لوناً جديداً من الأفكار والمعاني.[2]

ويؤكد الباحثون على تأثير الشعر العربي في بواكير الشعر الغنائي الأوربي، وقد كانت الخطوة الأولى في هذا الطريق الدهشة التي أصيب بها الدارسون حين فوجئوا بظهور شعر التروبادور في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي دون أن يعرفوا له جذوراً أوربية فقال دييز: "بما أن هذا الشعر يختلف عن بقية الأشعار الأخرى والسرعة التي تطور بها فهو يشبه الجن الساحرة التي تظهر فجأة من تحت خاتم أحد السحارين"، وقال بيزولا: "إن الأدب الكورتوازي الفرنسي والبروفنسي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية الثاني عشر يظهر وكأنه خرج من العدم، ويتعجب فوريال من هذا الشعر الغنائي العاطفي الذي لا مثيل له في تاريخ الشعر الأوربي.

أما المستشرق بريفو فيرى أن أوربة مدينة في كل شيء إلى العالم الإسلامي وأنها في أدبها متأثرة بالشعر الأندلسي لا سيما في أغراضه الجديدة كموضوع الألبا وأغنية الربيع إذ ليس هناك أي شعر أوربي، شعبي وغير شعبي، فرنسي أو أجنبي، يشهد ولو من بعيد بأي تشابه للشعر البروفنسي اللاحق للشعر الأندلسي.

لم تكن هذه الدعوة ميسورة الوقع على الباحثين المعاصرين للأسباني خوان أندريس بل كان رد الفعل بينهم عنيفاً ولم تلق دعوته تجاوباً حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث تجددت الفكرة والاهتمام بمسألة تأثير الشعر الغنائي في الشعر الأوربي فكان ممن وقف عندها: همر بور جشتال، وتابعه الألماني فون شاك.

وإذ يستعرض محمود علي مكي[3] هذه الآراء يجعل سنة ١٩١٢ سنة حاسمة في هذه القضية حيث خرج ربيرا بنظريته الجديدة التي تشير إلى وجود شعر غنائي مكتوب باللاتينية الدارجة في الأندلس الإسلامية وكانت هذه النظرية ثورة عارمة أحدثت دوياً هائلاً فيما يتصل بمولد الشعر الأوربي الغنائي حيث وجد ربيرا أن الشعراء البروفنسيين والتروبادور لم يفعلوا أكثر من تقليد نماذج الوشاحين والزجالين الذين

---

١ نفسه، ٣١.

٢ تنظر هذه الآراء وأمثالها في رسالة أثر الشعر الأندلسي في شعر التروبادور، عباسة محمد، جامعة بغداد، ١٩٨٣.

٣ أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، ص ٤١ . ٤٤.

سبقوهم بقرنين على أقل تقدير.

وجاء المستشرق الجشيكي نيكل سنة ١٩٣٣ ليعزز نظرية ريبيرا حين نشر ديوان ابن قزمان ودرس الشعر الغنائي على جانبي جبال البرتات، ويمضي محمود علي مكي في تتبع أنصار هذه النظرية فيذكر ثالثاً هو المستشرق الأسباني بيدال في كتابه الشعر العربي والشعر الأوربي، ١٩٣٨، ثم المستشرق الإنكليزي شتيرن في بحثه الخرجات الأسبانية في الموشحات العبرية، ويتوج هذه الجهود غرسيه غومس حين يكتشف مخطوطاً نفيساً لابن بشري الغرناطي يتضمن أربعاً وعشرين خرجة باللاتينية الدارجة.

وإذ يتفق مؤرخو الآداب الأوربية بأن شعر شعراء التروبادور وأولهم جيوم التاسع دوق إيكتيانيا وكونت بواتييه (١٠٧١. ١١٢٧م) ثم سير كامون ومارکابرو. وبيرد ألفتي وجوفر روديل تمثل أقدم شعر غنائي عرف في أوربا، حتى اكتشاف الخرجات في الموشحات الأندلسية، حيث تتبين أواصر الشعر الغنائي بين الأدبين العربي والأوربي ويكون جيوم التاسع حلقة الوصل بين التوشيح الأندلسي والشعر الأندلسي والشعر الغنائي في أوربة وتتوثق هذه الصلات والوشائج بين الأدبين بالشعراء الآخرين.[١]

وقد قطعت الدراسات الأوربية المتصلة بهذا الموضوع شوطاً بعيداً ثم أعقبتها دراسات لباحثين عرب في مقدمتها دراسة الباحث الجزائري عباسة محمد تناول الباحث فيها الموشحات والأزجال في نشأتها وخصائصها، واختص التروبادور وأوائل شعرائه وخصائصه من حيث الشكل في بناء القصيدة وأوزانها وقافيتها ولغتها ومضنون هذا الشعر في معانيه المرتبطة بشعر الموشحات مثل الكورتوازية والقصيدة الغزلية والألبا (أغنية الفجر) والباستوريلا وشعر الرثاء والشعر الديني وغيرها مما أوقفنا على مظاهر تأثره بالشعر الأندلسي.

وقد وقف عباسة عند عوامل التأثير والتأثر وجاء في قسمين تناول في الأول الشكل الفني لقصيدة التروبادور وفي الثاني موضوعاتها.

ولا بد أن نشيد بجهود الباحث الذي يبدو واضحاً في أنه كرس محاولته في هذا الموضوع مستفيداً فائدة كبيرة من مصادره الأجنبية التي جاوزت الثمانين معتمداً في رصد الظاهرة على نصوص تطبيقية.

وأما محاولة عبد الإله ميسوم الباحث الجزائري أيضاً فتتجلى في كتابه تأثير الموشحات في التروبادور، وهي محاولة تسبق جهد زميله المتقدم بعدة سنوات[٢] فهي تصب في معين واحد وتتجلى هذه الحقيقة من خلال أبوابها الأربع التي تناول فيها ظهور الموشحات في الثقافة الأندلسية، وعوامل تأثير الأندلس في جنوب فرنسا، والتروبادور البروفانسيين، ثم مظاهر تأثير الموشحات في التروبادور.

---

١ نفسه، ٥٣.

٢ ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١. وتشير مقدمة الباحث إلى أن الكتاب رسالة علمية انجزت سنة ١٩٧٦.

ومن الباحثين الأسبان المستشرق الكبير بالنثيا في بحثه الشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوربي، اعتمد على نصوص شعرية عربية كثيرة لولادة وابن عمار وابن خفاجة وأبي بحر التجيبي وأبي فرج الجياني وغيرهم ليوضح مجالات التأثير في شعر التروبادور والشعر القطلوني والبرتغالي والإيطالي والأسباني.[١]

ويبدو من الغريب حقاً أن يظهر شعر التروبادور في فرنسة قبل ظهوره في أسبانية، ولكن الظروف التي اقترنت بأول شعرائه توضح سر ذلك، إذ أنها كانت مختصة بجيوم التاسع أقدم تروبادور من الفرنسيين على نحو ما يوضح سعيد شلبي.[٢]

لقد وقف بعض الباحثين موقف الأناة من قضية التأثر بالشعر الأندلسي وذلك بسبب افتقاره إلى حجج قاطعة في تعزيز رأيه ومنهم المستشرق الفرنسي بروفنسال وذلك في بحثه عن الشعر العربي في أسبانية وشعر أوربة في العصر الوسيط،[٣] لكن الدراسة الحديثة اقتربت كثيراً من هذه الحجج التي تشير إلى أثر عميق في الشعر الأوربي لا ينكره بروفنسال.

أما محمد الفاسي فيعرض لنا أهم الانتقادات الموجهة لتأثير الشعر العربي في الشعر البروفنسالي ومنها أن التروبادور لم يكونوا يحسنون العربية فكيف تأثروا بشعرها وأن أشعار ابن قزمان ومواضيعه بعيدة عن الحب السامي الذي نراه عند التروبادور ويرد الباحث الاعتراضين بحجج تقوي وجهة النظر القائلة بتأثير الشعر العربي في الأوربي.[٤]

وقد وقفت هذه الدراسات على معنى لفظة التروبادور حيث نجد أنها في أصلها مركبة من كلمتين كلمة تروب ومعناه فرقة والمقصود فرقة غنائية، وتدور وهي عربية واضحة المعنى فالتروبادور فرقة من الشعراء المنشدين تدور في البلاد لتنشد شعرها.[٥]

ويرى آخرون أن أصل الكلمة (دور طرب) ثم قلب إلى (طرب دور) تمشياً مع أوضاع بعض اللغات الأوربية في وضع الصفة قبل الموصوف والمضاف إليه قبل المضاف أصبح تروبادور.[٦]

ولعله من الطريف أن نجد أحد الباحثين العرب ينحو في البحث منحاً جديداً فيكتب بحثاً ليخلص منه إلى القطع. فيما يرى. بأن شعر التروبادور لم يتأثر بمفهوم الحب الذي تصوره الموشحات والأزجال برغم ما قد يبدو بين المفهومين من تشابه

---

١ دراسات أندلسية، د. طاهر أحمد مكي، ص ١٩٣ . ٢٢٤. والبحث في أصله محاضرة ألقاها بالنثيا في المعهد الأسباني التابع لجامعة كولومبيا في نيويورك ونشرت في المجلة الأسبانية الحديثة، العدد الثاني يناير ٩٣٥.

٢ دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ١١٨.

٣ الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٣٠٢. والبحث في أصله محاضرة ألقاها سنة ١٩٤٨.

٤ تأثير الشعر العربي بالأندلس في الآداب العربية، مجلة المناهل المغربية، العدد ٢٠ مارس، ١٩٨١.

٥ العرب والحضارة الأوروبية، ١٠٤.

٦ تاريخ الموسيقى الأندلسية، ١٣٢.

جزئي طفيف.[1]
ومن المصادر الأندلسية التي أثرت في شعراء التروبادور كتاب طوق الحمامة.[2]

٣. أثر القصة العربية في القصة الأوربية:

يأتي الوجه الثالث لتأثير الأدب الأندلسي، في أثر القصص العربي في نظيره الأوربي، وهو فضل يضارع فضل شعرهم. كما يرى الشوباشي، معللاً، فكلاهما تعاون على تحقيق نهضتها الأدبية التي قام عليها صرح رقيها الحضاري.

ومن المستشرقين الذين قالوا بهذا التأثير المستشرق ربنان وذلك حيث يقول: "من المسلم به عموماً أن أوربا استوردت من العالم الإسلامي قصصه ورواياته وحكمه وأمثاله"[3] كما يقول جاستون باري: "ترجم عدد من القصص العربية إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية، وتولدت منها سلسلة طويلة من الروايات بل هناك مجموعة كاملة من قصص عربية الأصل انتقلت إلى أوربا بفضل (بوكاشيو) وغيره من الكتاب الإيطاليين.

ويشير باري إلى القصص الفرنسية المشهورة التي نبعت مباشرة من أصل عربي منها قصة (فلوارو بلانشفلور) وقصة (أوكاسين) و(نيكوليت) و(وصية كلب) و(الليلة الطويلة) و(الطبيب الشرير) واقتبس موليير عن القصة الأخيرة مسرحيته (طبيب برغم أنفه).[4]

ولذلك فإن هذا اللون من الأدب انتشر على نطاق واسع إلى حد أن دراسته تحتاج إلى بحث كامل يخصص لها[5] ويرى مثل هذا الرأي سعد شلبي.[6]

وعلى أن الدراسات تؤكد على المصدر الشرقي في انتقال تأثيرات القصة العربية إلى أوربة فإن دور الأندلس لم يكن أقل من صنوه المشرق العربي، إن أي دراسة لتاريخ القصة في أوربا لا يمكن أن تهمل الجذور العربية التي تأثرت بها حين ظهرت قصص ذات طابع شعبي متأثرة بالقصص الشعبية في الأدب العربي وأحدثت انقلاباً في فنون الأدب لدى غرب أوربة التي اقتصرت على القصص الخرافية والملاحم الأسطورية وذلك بعد أن غزت الحضارة الأندلسية أوربة وخطفت أنظار أمراء الجنوب الفرنسي وخلبت ألبابهم وأشعرتهم بتأخرهم فكان تأثرهم بفن القصة صورة لاحتذائهم العرب في كل حركة وسكنة وفي كل مظهر ومخبر.[7]

---

١ صلة الموشحات والأزجال بعشر التروبادور، ١٤٣.
٢ دراسات عن ابن حزم، ٣٤٢.
٣ رحلة الأدب العربي إلى أوربة، ١٢٥. وهو الذي أنكر وجود أية صلة بين الشعر الأوربي والشعر العربي.
٤ الأدب الفرنسي في القرون الوسطى، ٢٣٣. نقلا عن رحلة الأدب، ١٢٧.
٥ المصدر السابق، ص ١٢٦.
٦ دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ١١٣.
٧ رحلة الأدب، ٢٤٠.